مُناقشات

إلى الأستاذ يوسف الشاروني

كنت علي وشك أن أكتب إلى الدكتور سهيل ادريس راجياً منه ان يعيد نشر مقالي « مفهومات في الانسان والفن » كرد على تعليقك عليه في العدد الماضي ، فلا خلاف بينك وبين الكاتب الذي دفعني كلامه يوماً إلى كتابة المقال . وقد عدت الى القضايا نفسها وعرضت لها بالفهم نفسه ، وإن كنت لم تبد رأيا فيما يخص كلامي عن أهل الكهف ، وعن البحث الذي أعجبك . أما فيما يخص كلامي عن موقف الفن والقصة خاصة من التعبير عن الإنسان ، فقد اعلنت كذلك الرأي نفسه الذي أعلنه صاحبك من قبل حيث تقول إنه « ليس هناك فن تشغله قضايا الإنسان المجرد » . أما دليلك في هذه المرة فهو أن التجريد عملية بعدية يقوم بها القارىء أو الناقد ؛ ولست أدري ما معنى هذا الكلام على التحديد : أيحدث القارىء أو الناقد في الأثر الفني ، في قصة مثلاً ، شخصيات غير الموجودة فيها ، فيجرد ما أراده الفنان أن يكون غير مجرد ؟ لقد كنت فيما أذكر أتكلم عن العمل الفني بعد أن يتم ، ومن وجهة نظر القارىء والناقد ، أي الناس ، ولم أكن أتحدث عن العمل الفنيوهو في ذهن صاحبه جنين. أو شعور غامض ، ولم أكن أتحدث عنه وقد ألقى به صاحبه في وسط محيط او في صحراء ، بحيث لا يراه الناس أو يحددون موقفهم منه . وسواء قام التجريد من القارىء أو الناقد أو الفنان ، فهو تجريد قائم في العمل الفني ذاته ، على أساس أن القيمة الأولى فيه للانسان لا للبيئة ولا لأي ظرف خارجي آخر . ومن العجيب أن تضع كلمة « معين » في مقابل كلمة « مجرد » ولست أدري ما يبرر ذلك عندك،في حين أن سلوك « الينا » باعتبارها إنسانة لا تخضع لسيطرة خارجيةما،لا يبرر أن تعدم تعينها في مجال الشخصيه الإنسانية . إن « إلينا » شخصية معينة فيما هي في التزامها لمنطق ذاتها إنسانة مجردة من سيطرة انتسابها الى وطنها أو أسرتها أو طبقتها أو غير ذلك من الظروف التي تحللت منها واختارت في حياتها موقفاً لا يعتمد اعتماداً سابقاً على أحدها . وكذلك لم افهم قولك « ما معنى ضرورةالتجسيد في العمل الفني إذا كان التجريد هو الهدف ؟ » وأغلب الظن أن السؤال ناتج عن فهم لم أقصد إليه للتجريد الذي لا يتنافى أبداً مع التجسيد أو التعين ، ومن اللازم أن أقول هنا ان مفهوم « التجريد » ليس اصطلاحاً يتعين استعماله بمعنى محدود ثابت ، أن التجريد في الفن ، كما قلت ، وببساطة ووضوح : ان يكون الإنسان لا البيئة ولا نظرية ما ، ولا أي عامل خارجي آخر ، هو مصدر القيمة في الفن . وازن بين الأطفال في قصة « المدينة القديمة » لاهرنبرج وبين الاطفال في الفصل السادس والعشرين من قصة « شارع السردين المعلب » لشتاينبك (ترجمة الأستاذ البعلبكي) — الأطفال في القصة الاولى ضرب من الدمى مصنوع لخدمة شيء معين ، أما في قصة شتاينبك فهناك اطفال حقيقيون : من خلال العادي والمتكرر ينفذ شتاينبك الى الصدق في الحياة ، هذا الذي يعرض لنا أعمق ما يمكن أن ينزع الفن الى التعبير عنه ، دون الحاجة الى قصد سابق ، نظري غير معاش في الغالب .

وإذا كنت قد فهمت سؤالك لي عن ماهية الإنسان ، فانا اجيبك على أساس فهمي للسؤال بعد جهد ، بأنها ليست عدة أفكار تكون بناء نظرياً للانسان يتسم بالسكون والكمال مما قد يكون مضمونا للفلسفة المثالية (فأنا لم ادرس القضية من هذا الجانب) ، ولكنها المظاهر الداخلية والخارجية المتحققة في كيان سلوكي لا يتسم بالسكون والثبات السابقين. إنها لا تنفصل عن الفعل ، عن الوجود ، فهي إيجابية ذات فعالية سلوكية بالنسبة للانسان الذي تحققت فيه . إنها في الوجود الذي يحتويها ، ومتحققة في كل انسان بتفاوت . وهنا أحب أن أشير إلى أنني لم استطع ان افهم وضعك لكلمة « علمي » التي وصفت بها ما كتبه الأستاذ حسين ، وكلمة « مثالي » التي وصفت بها ما كتبته في مقالي ، على صورة مفهومين متقابلين، ما العلاقة بين الكلمتين ؟ هل كلمة « علمي » تساوي عندك « واقعي » ؟ أو كلمة مثالي تساوي « غير علمي » ؟ أو لا تكون على خطأ لو كان هذا هو ما في ذهنك ؟ ام ان العلاقة بينها هي العلاقة بين كلمتي « بعدي » و « قبلي » مع ان الكلمتين الاخيرتين لا تتساويان مع المفهومين السابقين على الاقل لانهما منطقياً متقابلتان بينما علمي ومثالي غير متقابلين.دعني أسألك بعد ذلك هل مفهوم البيئة عندك هو الثلوج والزحافات والخيول ؟ ألا ترى في هذا المفهوم وصفاً للبيئة من الخارج فقط ، وأنه وصف لا يقف امامه إلا دارس الجغرافيا الطبيعية دون البشرية فضلا عن دارس فن ؟ إن هناك جانبا آخر في البيئة هو ما يعنينا أولا وقبل كل شيء في الفن ، وهو حقيقة علمية لا ينقضها اعتمادك على تضييق مفاهيم الكلمات التي تستعملها ، او بالأحرى استعمالها في مجال واحد من مجالات مدلولاتها ، أليس مظهراً رئيسياً من مظاهر البيئة ما يتركه احتكاك الإنسان بالطبيعة فيه من خصائص نفسية وجسمانية تميزه عن غيره في البيئات الأخرى ؟ في بعض قصص نجيب محفوظ تجد شخصية « الفتوة » شخصية مصرية لا لأنها تتخذ جمالاً لسلوكها أحياء مصرية معينة ، ولكن لأنها تتصف بالخصائص النفسية التي تتسم بها هذه الشخصية في ذلك الجانب من جوانب الواقع المصري ، والشخصيات المصرية في « قنديل ام هاشم » ليحيى حقي ، شخصيات مصرية لا لأنها تتحرك في نطاق حي « السيدة » بل لتحقق تلك الصفات النفسية البارزة في نظرة تلك الشخصيات الى الحياة والمصير ، وفي علاقاتهم فيما بينهم — خذ بعد ذلك « ايفان » أو « أليوشا » في « الإخوة كرامازوف ». إنك لا تستطيع أن تتميز في هذين النموذجين خصائص نفسية معينة تربط بينها وبين بيئتيهما روسيا ، إنها نماذج إنسانية تتحرك بفلسفتها ونظرتها الى الحياة في مجال واسع ... في كل بيئة .

قل لي بعد ذلك هل يكون طبيب القرية من ألمانيا ، أو تشيكوسلوفاكيا، حين يعجز بلا مبرر واضح عن رد السائس عن خادمته، وحين يقفز من النافذة نافذة المريض ، ليركب عربته ، ثم يسير في « الصقيع » إلى حيث لا يدري عاجزاً مرة أخرى عن الحصول على معطفه المعلق بمؤخرة العربة — حسبي أن أقول لك إن هذه القصة عندي لا قيمة لها بواقعيتها الحرفية إن صح التعبير ، بقدر ما تتمثل قيمتها العميقة الغنية في رموزها الدالة على أزمة الإنسان وغربته وضياعه بازاء واقعه ومصيره ، وعلى هذا الأساس تأخذ الثلوج دلالتها الإنسانية عندي كلما قرأت القصة ، كما تفقد تماماً دلالتها الجغرافية — المحدودة ، أما إذا كنت تريد أن تقف بفهم البيئة في الفن عند حدود الجغرافيا الطبيعية ، ثم تفهم الثلوجفي القصة بدلالتها المباشرة ، فلا بأس من أن أعترف لكبأن ذاكرتي قد خانتني ، وهي تخونني دائماً بعد أن أقرأ طبيب القرية ، وكثيراً ما أقرأها فلا أحس بالخصائص التي تميز في بطلها أو في إطارها العام بيئة معينة،

كما هو عهدي كذلك بأبطال كافكا – وأحب أن أسألك هنا : إلى أي بيئة ينسب أشخاص قصتك « الطريق إلى المعتقل » وأنت متأثر فيها إلى حد بعيد بأجواء كافكا ونماذجه ، وبطبيب القرية على وجه الخصوص ... إلى أي بيئة ينتسب « البطل » و « صالح » و « خليل » ؟

أما قولك إنني اعتمدت على جملة واحدة للأستاذ حسين في عرض رأيه ومناقشته فقد كان مقبولا لو أنك أتيت من مقال الكاتب وخاصة حديثه عن شعر المدد الذي نقده، بما يتنافى مع المفهوم الذي حملته تلك الجملة وأكدته طريقته في الفهم والتذوق .

وبعد فلقد أثبت بتعليقك شيئاً كنت متشككاً فيه ، ذلك هو ضرورة مقالي عن تلك القضايا التي كنت أحسب أن الحديث فيها لا يعدو تأكيد بديهيات ، ومسلمات عامة ، وإن كنت قد شعرت بالأسف لأنك – أنت – صاحب التعليق .

القاهرة — رجاء النقاش

★

حول مقال « أدبنا الملتزم »

نشرت هذه المجلة في عدد أيلول الماضي مقالاً نقد به كاتبه الاستاذ يوسف الشاروني العدد السابق . وقد تفضل الناقد المحترم فخص مقالنا عن « أدبنا الملتزم » بكلمة ، لسنا نكتم أننا سررنا بها . وقولنا « سررنا » هو من باب التجاوز ، والواقع أننا ابتسمنا بل ضحكنا أيضاً . فالناقد المحترم لم يقتصر بعرضه لطريقته الخاصة في فهم المقال على إعطائنا المثال الرائع والدليل القاطع على عنصر من جملة عناصر المشكلة التي أثبتنا أنها مشكلة العرب الرئيسية ، بل خلص بطريقة الاستنتاج الى التعريض بالنوايا ، والطعن في الوطنية ، معتقداً أنه يكشف سراً ويفضح مؤامرة، وذلك في حماس ظاهر . وكنا نود أن نجله عن هذا النزول السريع الى هذه المنازل التي وضع نفسه فيها ، كنا نود ذلك لا لشيء سوى أنه نشر كلمته على صفحات مجلة تعنى بشؤون الفكر ، وأنه وعد في مستهل نقده بأن « يأخذ فيه بروح العلم » . لذا لن نجاريه في هذه المزالق التي ارتضاها لنفسه ، لأن ذلك ليس من عادتنا ، وحسبنا أن نغمزه في نيتنا قام على استنتاج شاذ ، وأن كل من قرأ مقالنا وكل من يتتبعون ما ننشر ، يعلمون جيداً أين نحن وأين هو بكلمته هذه من العمل الوطني الحق .

قلنا في مقالنا إن مشكلة العرب الرئيسية هي التأخر ، وأبرزنا حقيقة هذه المشكلة وخطورتها بايضاح جذور وأصول لها عميقة ، ولم نقف عند مظاهر الحياة الاجتماعية التي تخفي بخداعها وبريقها تلك الجذور والأصول . ثم دعونا الى العناية ببحث هذه المشكلة ، باعتبارها موضوعاً من موضوعات الأدب الملتزم، واستغربنا موقف الكتاب الذين يتجاهلونها أو يغفلون عنها، للتلهي بموضوعات لا ترقى الى أهميتها ، وضربنا مثالاً على ذلك ما فعله أحدهم ، حين واجه نقداً مفيداً للواقع العربي بفورة من الحماس الخاوي الذي جعله يراه لوناً من التهجم على الكرامة والدعاوة للاستعمار . وقد أبنا في التعليق على موقفه أنه لا يخدم إلا أسباب استقرار التأخر ، لأنه يعاون في طمس الحقائق المرة التي من جلائها وحده يمكن أن ينبعث نور الرقي الصحيح ، ولأن القوة الروحية التي هي النتيجة الطبيعية لهذا الرقي ، هي الحرز المكين لكل استقلال مهما كانت الظروف ، ولأن انعدامها مدعاة في اي وقت واي ظرف لتضييع الاستقلال أو للعجز عن نيله . وسقنا للتدليل على هذا مثال البلاد العربية التي نالت استقلالها السياسي ولم تفد منه شيئاً لتعزيز كيانها بحكم افتقارها الى القوة الروحية التي لا تتأتى إلا من تمثل الرقي الخالص ؛ والكل يشهد اليوم ماذا يعاني هذا النوع من الاستقلال من انتهاك لحرمته ، ومن خطر لزواله الكلي ، دون أن نلمس في الشعوب قوة روحية تقف حائلاً منيعاً في وجه ذلك . هذا هو ملخص الفكرة الرئيسية في المقال ، وقد انتهينا الى القول : « وهكذا نرى كيف أن للعجب أن يتملكنا بعنف وقوة ، حين نسمع بكتاب يبغون الالتزام ، فلا يجدون غير الاستعمار أو نحوه كموضوع للتناول يبذلون فيه الجهد دون جدوى حقيقية ، مع أن الاستعمار قد جلا عن البلاد أو هو في طريق الزوال ، في حين أن ما ظل راسخاً فيها ، وما يحدد تأخرها ويمهد الأسباب لعودة النفوذ الأجنبي ذاته أو بقائه ، هو استعمار الأثرة في النفس ، واستعمار السطحية في الفكر » .

وقد أعجبت الناقد المحترم تسميتنا العرضية في سياق المقال للتحرر الذي أحرزته بعض الدول العربية تحرراً سياسياً ، ولم نقل إنه تحرر عسكري فقط ، فأحب أن يعتبر أننا قد غفلنا أو تغافلنا عن أمر النفوذ الأجنبي ، مع أننا أوضحنا فكرتنا بالاستدراك القائم في معنى لفظة « أو » المتكررة مرتين في الفقرة الآنفة الذكر ، وهو إذ يفيد توسيع نطاق الاعتبار ، يشير ضمناً إلى أن المجال هنا ليس مجال البحث والتبسط في هذا الموضوع . وهذا فضلاً عن أننا عنينا جيداً بتأكيد أهمية القوة الروحية التي حددنا بها قيمة الاستقلال أياً كان نوعه . ولو تأمل في مدلول القوة الروحية هذه ، وفي سائر فقرات المقال وفي مغزاه العام ، لأدرك أننا لا نعلن به فقط ثورة على اتجاه من يعملون على « هدهدة الأوضاع الراهنة وإطرائها » أو « تجاهلها » ، ولكن عرضنا أسس البناء العلمي الذي يجب أن يتم عمل كل ثورة ، وذلك بأن أوضحنا ضرورة ايجاد القوة الروحية التي تنبثق في الواقع عن تمثل الرقي الصحيح . فلسنا ممن يكتفون بالانفعال العاطفي لمعالجة المشاكل كما فعل الأديب موضوع الاستشهاد في المقال ، وكما يريدنا الناقد المحترم أن نفعل . بيد أن صاحبنا لم يشأ أن يفهم كلامنا على غير هواه ، فرمانا بتجاهل أمر النفوذ الأجنبي ، وجعل يتعجب من جمعنا في الحديث بين التأخر العربي ، وبين الاستعمار الزائل ، وبين وجوب الاهتمام بالقوة الروحية ، وظن أننا نرمي الى ثني العزائم عن مكافحة الاستعمار ، لكي يتلهى الناس بأمور خاوية لاغية سميناها قوة روحية وتقدماً الخ .. وحبكت معه الفكرة فقال ما يعني أننا نسعى الى تخدير الشعوب في سبيل خدمة الاستعمار ، وهو ادعاء مردود من قبل اي قارىء يتمتع بأدنى قسط من التمييز ، وراح يسائلنا عن « العلاقة القوية بين التحدث عن الروحية وبين وجود الاستعمار بشكل او آخر » ، وعن الجهة التي نعمل لمصلحتها ، ويستغرب « كيف سمحت مجلة الآداب بنشر المقال » ، ثم يتخذ لهجة نائب عمومي ليدعو الى « كشف هذا اللون من التفكير وفضحه حيثما وجد » ...

مهلا ، رويدك يا هذا .. فلم تبلغ بنا السذاجة الى هذا الحد لنكشف عن ميولنا الاستعمارية بهذه البساطة والصراحة ، ويجب علينا على الأقل ان نداري ونحاذر الأذكياء الفطناء الذين يفضحون هذه الميول بأقلامهم العتيدة .. أليس هذا ما يقضي به المنطق ، منطق الخيانة الوطنية الذي أبيت إلا ان تجردنا منه ايضاً ؟

بقي أن نعرف كيف يتصور صاحبنا مدلول « القوة الروحية » ، وما تعنيه « الروحية » و « المثالية » بوجه عام . فهو يبدو غير مقتنع بقيمة هذه الألفاظ الفارغة ، ولا يوافقنا على أن بها شيئاً من الجدوى

بالنسبة لحل مشكلة التأخر العربي ، بل يذهب الى اعتبارها خيالات سرابية غرض الحديث عنها مجرد التضليل . وإزاء هذا ، نربأ بأسفنا أن نعلنه إياه ، ولا نرى ضرورة او فائدة من الإطنـــاب في شرح هذا الموضوع الذي عقدنا الفصول المتعددة عنه ، وإنما ننصحه بالرجوع الى ما كتبنا في افتتاحيات مجلة «الأديب» ، ولا سيما ما نشر في أعداد يونيو وأغسطس عام١٩٥٢، وسبتمبر ونوفمبر عام ١٩٥٣ ، وفبراير عام ١٩٥٤ .

إن هذا الموقف بالذات هو ما يؤيد رأينا في أن مشكلة التأخر العربي هي في الأساس مشكلة مفاهيم : فالتمدن يبدو عـــلى أنه فقط صورة من التلبس بقشور من المدنية خادعة ، والوطنية هي عاطفة خاوية ، والروحية مجرد مزيج أجوف من نشوة العاطفة والخيال . وجلاء الحقـــائق بابادة هذه الأوهام المستبدة هو وحده الكفيل ببناء إرادة التقدم والنهوض والخلاص من كل قيد مادياً كان أو أدبياً . ويخطىء صاحبنا كل الخطأ اذا ظن أن المادة هي التي تسير العالم اليوم ، فالقوة التي تحرك الأمم الراقية ليست هي المادية ، بل الروحية ، فالروحية هي وراء كل خلق لهذه الأشكال المـــادية المتعددة التي يراها في نتاج الحضارة الراهنة . ولا يظن أن بالعالم العربي اليوم شيئاً من الروحية ، فلو كان أمره كذلك لما كان حاله الحاضر حـــال الخزي الذي تردى فيه . وليثق بأنه بغير الروحية الشـــاملة في النفوس ، وبغير القوة الروحية التي يمكن ان تعتمر بهـــا قلوب الشعوب ، لا قيمة لأي استقلال ينال ، ولا لأي استعمار أو نفوذ أجنبي يزول ، فالاستقلال في مثـــل هذا الوضع الآسن يباع ويشرى دون ان يواجه أي وازع ، والاستعمار في أي شكل كان عائد لا محالة . ولقد ثبت بالدليل المـــادي القاطع أن القوة الروحية تفعل فعلهـــا الرائع حتى في أبعد الأحوال عن أي كيان استقلالي ، ولسنا هنا بحاجة الى إيراد الشواهد والأمثلة ، فهناك من الأمثلة القريبة المعروفة ما إذا أوردناه يؤلم الشعور القومي . وليذكر أن الشعب الخامل الجاهل ، والمغرور بالأوهام والفتات من قشور الحضارة ، سرعان ما يضيع بيده استقلاله ولو كان كامـــلا ، أو يدفنه في دياجير جهله وغفلته ، بحيث يصح القول فيه إن استقلاله وعبوديته سيـــان . وهذا الكلام ليس للتخدير ، وليصدقنا هذه المرة . وليعلم أن تساؤله عن رأينـــا في النفوذ الأجنبي الذي خيل اليه أننا نتجاهله ، إنما جاء في غير محله ، وانه في الواقع برهان لنا وليس له ، لأنه بالفعل من جملة ما رمينـــا الى التنبيه اليه في مجمل روح المقال ، بمعنى أنه إذا كان هناك نفوذ أجنبي من أي نوع كان ، فالسبب الوحيد هو انتفاء القوة الروحية . وهكذا يتضح مما تقدم أن الحديث عن القوة الروحية ليس أداة تمويه وإلهاء وتخدير ، كما تهيأ له ، وإنما هو لب الموضوع وحجر الزاوية في درسه .

على أنه يبدو لنا أن للناقد المحترم وجهة نظر خـــاصة اخرى بالنسبة لمدلولي الروحية والمادية ، قد تكون هي التي أملت عليه كلمته بكاملهـــا . فلعله يعتقد بأن المادية تمثل فريقاً سياسياً من دول العالم ، يقـــابله فريق آخر تبنى الدعوة الى الروحية . ونحن لا نحب أن نصـــدق هذا ، لأنه تصور شاذ وغريب عن حقيقة الموضوع ، ولأننا نؤمن بأنه لا سبيل للمرء في هذه البلاد الى أن يصبح عضواً نافعـــاً في مجتمعه ، ولا أن يصير أديباً ومفكراً يقوم بخدمة التوجيه بين مواطنيه ، إلا إذا تحرر من مثل هذه القوالب الدخيلة المصنوعة في الخارج والتي قد يلغو بها بعض الناس . ولذا ننصحه مخلصين بأن يبتعد جهده عن هذه القوالب اذا كان قد اقترب منها ، وان يخرج من إطارها اذا كان قد ولجه ، وذلك على الأقل حين ينبري للكتابة باسم « روح العلم » .

إننا نود ان نؤكد أن ما صدرنا عنه في كتابة مقالنا ، إنما هو إيمان راسخ بان الشرط الأساسي لنهوض اية امة هو ظهور موجة جماعية فيها من نقد الذات ؛ فمبدأ « إعرف نفسك » هو في الحقيقة نقطة الانطلاق نحو اي إصلاح جوهري ، سواء اكان ذلك للفرد ام للجماعة . ونحن اذا كنا نرى أن مهمة اثارة هذا النقد وتوجيهه من اقدس المهام الملقـــاة على عاتق الكتاب العرب ، نعلم انها مهمة دقيقة وشائكة ، وان على القائم بها ان يتوقع التهجم والطعن حتى في نيته وإخلاصه ، لان ما سيصطدم به هو من اهواء العاطفة لا منطق العقل ، ولكن التضحية في سبيـــل هذه المهمة واجبة ، وهي لا تضير شأن صاحبها إلا إذا كان في قيام المرء بالواجب ضير عليه . والجدير بالذكر أننا وجدنا في صاحبنا خير مصداق لما توقعنا ، وهو في الواقع لم يخـــدم بموقفه سوى وجهة نظرنا ، إذ أنه بعد أن قرأ مقالنا الذي اتخذ صيغة النقد الاجتماعي في روحه ، واستهدف بنقده صورة معينة من التفكير ، قد أطل علينا بهذه الصورة عينها ، وتصرف بوحيها ، وقدم لنا وللقراء مثالاً عينياً ساطعاً يؤيد كلامنا ، وينبت أننا أصبنا نقطة حساسة ، ومسألة جوهرية في صلب الوجود العربي ، هي أخطر ممـــا قد يظن ، وينبغي ان تعبأ لها الجهود المخلصة . وهو كمثل ذلك الذي استشهدنا به في المقال ، وشأنها في حل المشاكل شأن من يشتم اسبابها بدلاً من ان يعمل على إزالة هذه الأسباب .

والطريف ان صاحبنا شديد الثقة بنفسه لدرجة انه راح يلوم ويسأل كيف سمحت المجلة بنشر المقال ... سامحه الله ! إن الجواب على سؤاله بسيط ، فالذين « سمحوا » بنشر المقال قد فهموه على حقيقته ...

محمد وهبي

★

حول قصيدة « الصامدون »

قرأت في العدد الماضي تعليق الاستاذ يوسف الشاروني عـــلى قصيدة « الصامدون » ، ولقـــد ادهشتني الاحكام المبتسرة التي اطلقها الصديق الكاتب ، هذه الاحكام التي أبت الا ان تواجه عفيدتي مشبعة « بعقيدة » صاحبها ، والا ان تحكم على القصيدة من خلال بضع كلمات لم ترد عفواً بطبيعة الحال ، غير ان الكاتب وجد فيها « دعاية » لاتجاه ما !!

ان الحكم على قصيدة من خلال بعض كلماتها التي تكون هي وسواها ثقيلة على بعض الآذان « المرهفة » يذكرني بالحادثة التالية : يروون ان احد الاساتذة ، في قطر شقيق ، عرض على لجنة المناهج الوزارية كتاباً لتدريس اللغة العربية ، استهله بالقول المـــأثور (اطلبوا العلم ولو في الصين) ... وكان ان رفضت تلك اللجنة ذلـــك الكتاب بدعوى ان « الصين » اصبحت « حمراء » !! ، بيد ان المؤلف اعاد الكتاب الى نفس اللجنة باستهلال جديد : « اطلبوا العلم ولو في فرموزا !! »

انني ارجو الا تتسرب مثل هذه الاساليب البوليسية التي ترى ، بسطحية غريبة ، في كل شيء مجالاً للتهمة والدعاية لاتجاه ما ، الى اقلام إخوانـــنا الكتاب الذين يرون الى مجلاتنا وكتبنا تسقط في كل يوم صريعة مثل هذه المقاييس .

انني الآن في سبيل دحض آراء الاستاذ يوسف الشاروني ولست في سبيل اتهامه وهو الكاتب الذي ارجو منه وله كل خير ، واليه ملخص ردي :

١ – وقف الكاتب عند كلمة « الواعي » الواردة في المقطع التالي :

ونساؤنا الثكلى ، ووحشتنا ، وجارتنا العجوز
– بالامس سيق وليدها الواعي الى ليل السجون
معروقة عمياء ، تطرد بالتعاويذ الهموم !

واعتبر مجرد وجود تلك الكلمة دعاية لاتجاه ما ، في حين ان كاتب هذه السطور قصد – كما هو واضح – كيف ان الوعي يسوق الاحرار ، في المجتمعات القديمة ، الى ظلام السجون ، وكيف يصنع الاحرار الواعون مصيرهم بانفسهم في حدود انغمارهم في الكفاح لتحقيق عالم افضل ضمن كفاح المجموع ، وكيف ان الجهل يدفع بالفرد غير الواعي الى تعليق كل شيء على القضاء والقدر ، حتى الارهاب مثلاً ، والى اللجوء « للتعاويذ » لطرد الهموم . مجرد محاولة للتعبير عن تناقض . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان « الوعي » الاجتماعي الذي لا بد ان يتحول ، عند سريانه الى الآخرين ، الى قوة نوعية ومادية تستطيع القيام بالتغيير هو الذي قاد ذلك الوليد الى السجن ، وان السجن لم يطبق عليه بسبب جريمة سرقة او ازهاق روح ، وان هذا الوعي ليس هو « اللقانة » او « الحدس » كما يعبر برجسون وليس هو « وعي الذات لاجل الذات » كما يعبر احد كتاب الوجودية ، .. انه الوعي الذي يثير القوى السائدة فتندفع لتشييد سجون القرن العشرين للحفاظ على مصالحها واعاقة التقدم .

٢ – يرى حضرة الكاتب انه يتحتم علينا ان نقدم « رشوة » الى القارىء عند استعمال بعض الكلمات ، والا حملت على محمل الدعاية المقصودة. حبذا لو تقدم الكاتب باقتراح « يعلم » فيه بعض الكلمات بشارة خاصة بحيث لا تستعمل الا لذاتها ، حيث يجري تقديم « الرشوة » .. نحن نريد ان نعرف هذه الكلمات ، .. ومهما يكن فالذي اعلمه ان اهم خاصية للادب الواقعي هي الوضوح ، الوضوح الذي يجعلنا في موقف مباشر امام القوى التي نصارعها ، وما استعمال الرمز او اي رشوة مفتعلة الا لون من الوان التهرب من المسؤولية ، كما انني اعلم ان للحقيقة جانباً واحداً : لا او نعم . وهذه حقيقة جدلية لا ينكرها الكاتب ، وان التضحية بالحقيقة في سبيل وجهة نظر فنية مشكوك في صحتها ، شيء كبير . ومن جهة اخرى ارى من الصحة بمكان ان نطلب من الشاعر ان يعتمد الالفاظ الملتزمة والمجازية في دلالتها على المعاني ، ولكن اكثر المواقف ، في الادب الواقعي ، تستوجب اعتماد الكلمات المطابقة في دلالتها على المعنى كما يعبر المناطقة ، وان اعتماد تلك الكلمات بصورة تجعل لها محلاً في الخارج ، لا مجرد رنين اجوف ، لا يحتمل معنى الدعاية المقصودة .

يقول الاستاذ ماركوت هاينان « يجب تسجيل المشاهد بصورة تظهر الافراد كممثلين حقيقيين للمجتمع ، ومن اجل ذلك كان لمصائرهم كممثلين للمجتمع – الواعي في ليل السجون – مغزى اوسع وقيمة اكبر من مصائرهم كافراد » .

٣ – ان الادب في اساسه ظاهرة اجتماعية ، وقد برزت هذه الظاهرة بصورة اكثر تأكيداً ، واشد ارتباطاً بالحياة ، في هذا العصر الذي نحياه، وتبعاً لذلك اصبح للادب معنى يحمل معنى الدعاية في اطواء ذاته . وارجو الا يحاول الصديق يوسف ايجاد تناقض بين هذا القول واقوالي السابقة ، لان احتمال معنى الدعاية هو ما يفرضه الواقع طبقاً لهذه المقولة :

ادب العصر الحديث يستلهم الحياة
والحياة نظم واوضاع واشكال متناقضة متطورة

واذاً فالادب الذي يعكس قيم هذه النظم وهذه الاوضاع لا بد ان يلتزم جانباً منها . ليس هذا مجرد تصور ، بل مما يؤكده الواقع ويؤمن به اولئك الذين يرفضون كل تفكير غيبي مسبق . خذ مثلا قصة « رجال وفئران » لجون شتاينبك ... اليست هذه القصة تنطوي على فضح بشاعة النظم الاستغلالية ، على « دعاية » ضدها ... ثم لمصلحة من هذه الدعاية ، اليست في سبيل نقيض تلك النظم ، كذلك قصة « الام » لمكسيم جوركي تحمل نفس الطابع وذات اللون من كشف مساوىء نظام متهرىء ، والدعوة لحياة افضل ، وفي ميدان الشعر – سأهمل ذكر شعراء عالميين نضاليين خوف ان اتهم بالتحيز – لنأخذ اروع قصيدة كتبتها الشاعرة الانكليزية المسيحية ايديث سيتويل « عصر الذرة » اليست هذه القصيدة الطافحة فناً واصالة وشاعرية مبدعة دعوة الى سيادة السلام والكفر بقيم حضارة استعمارية تبيح لنفسها اضطهاد البشر ، وتقتيلهم بالجملة في سبيل الجشع والربح ؟ من المستحيل ان يخرج الادب العالمي الحديث عن نطاق التفضيل ، تفضيل شيء على شيء ، والدعوة الى الشيء الافضل، وان هذا ما يؤكده استلهام الواقع في بحث هذه الامور ، ونحن نجد مثل ذلك حتى في ميادين الدعوة لمجتمعات جديدة ، فها رولد لاسكي مثلا لا يدعو الى الاشتراكية لانه « يحلم » بها ، بل لأن اوضاع الواقع الراهن واشكاله المألوفة هي التي تحتم ظهور الاشتراكية، ولا يقول بغير ذلك الا اولئك الذين لا يدركون التطور ، ولا الصراع الناشب بين عالم الضرورة وعالم الحرية .. اولئك الذين يستوردون بالبريد « روح » « اشبنجلر » ليكتشفوا « روح » « عروبتنا » مثلاً . ومنذ ثلاثين سنة ونحن ننكب بمثل هذا التفكير في ميادين الأدب والاقتصاد .. الخ .. وقد آن لنا ان نتحرر منه .

٤ – يرى الصديق الاستاذ يوسف، انه لم يجد في قصيدة « الصامدون» معنى الصمود ! لانني لم انقله – وهنا يستعمل احدى عباراتي ليلزمني بها – الى « ذات الحدث » . وهذا الرأي عجيب لانه يصدر من كاتب اقصوصة ناجح ، لا يريد ان يفرق بين موضوع ينتج احداثاً في الواقع وبين موضوع تعبيري ليس الا ، ولهذا كانت مقارنته لهذه القصيدة ، مع قصيدة « احد والحرية والربيع » مغلوطة من الاساس . لان هذه القصيدة تحتمل « حدثاً » هو معركة أحد ، وان محاولة ايجاد تصوير لجوانب هذه المعركة لا تقتضيه رواية حادثة كما وقعت فحسب . ولا تقتضيه رواية حادثة من « الممكن » ان تقع فحسب ، ولا لان ضرورة فنية تستدعي ذلك فحسب، بل لان تناول الاحداث بدون الاعتماد على التفكير الغيبي ، هو الذي يدفع الانسان بالضرورة الى الانغمار في « ذات الاحداث » ومحاولة نقلها كي تتجرد من المسحة الغيبية .

ومهما يكن فالذي اود ان اقوله ان قصيدة « الصامدون » تعبيرية ولا تشير الى اي حدث . ليس صامدوها امام قلعة محوطة بالحديد والنار ، تتفجر احداثاً وحركة ، بل ازاء قيم بائدة ثقيلة الوطأة على النفوس التي تريد ان تتحرر وتنعتق . انه صمود معنوي حيال القيم التي تريد ان تزهق النفوس .

الحق انني ادافع عن لون من التفكير لا عن قصيدة . فانا اعتقد ان كل عمل ادبي عرضة للنقد والتقييم ، ونحن عندما ننحاز الى جانب شعبنا الذي يخوض اقسى الصراعات في سبيل بقائه ، في سبيل الاجهاز على الاستسلامية والخور والخوف ، في سبيل تحرره ، نستطيع ان نهتدي الى التفكير الخاص بنا والذي يسدد خطانا . والى الكاتب اخلص تحيات الود والحب والتقدير .

بغداد

كاظم جواد